إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ
ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ
ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم
مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾
سُورَةُ طَٰهَٰ
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً
لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾
ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ
فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ
ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا
فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾
إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾
٣١٢

معانى الكلمات :

ودا : مودة .

لدا : شديد الخصومة .

ركزا : صوتا خفيا .

الثرى : التراب .

آنس : أبصر .

قبس : شعلة من نار مأخوذة على رأس عود .

المقدس : المطهر المبارك .

طوى : الوادى المسمى طوى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على محبة الله لأوليائه ممن آمن وعمل صالحا .

٢ ـ أن نتعرف على وظيفة الرسول وحدود تكاليفه .

٣ ـ أن نعلم ما كان من أمر مناجاة الله لموسى عليه السلام .

المحتوى التربوى :

فى وسط الوحدة والوحشة والرهبة ترفرف على المؤمنين ظلال ندية من الود السامى ، ود الرحمن ، والتعبير بالود فى هذا الجو نداوة رخية تمس القلوب ، وروح رضا يلمس النفوس ، وهو ود يشيع فى الملأ الأعلى ، ثم يفيض على الأرض والناس ، فيمتلئ به الكون كله ويفيض .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل ، فقال : يا جبريل إنى أحب فلانا فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه . قال : فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض ، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل ،

فقال : يا جبريل ، إنى أبغض فلانا فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ، قال : فيبغضه أهل السماء ، ثم يوضع له البغضاء فى الأرض » .

وهذه البشرى للمؤمنين المتقين ، والإنذار الذى سبقه للجاحدين الخصيمين هما غاية هذا القرآن ، ولقد يسره الله بلسان نبيه ﷺ وهو اللسان العربى المبين ليقرؤوه .

وتختم السورة بمشهد يتأمله القلب طويلا ، ويرتعش له الوجدان طويلا ، ولا ينتهى الخيال من استعراضه ، وهو مشهد يبدؤك بالرجة المدمرة ، ثم يغمرك بالصمت العميق ، وكأنما يأخذ بك إلى وادى الردى ، ويقفك على مصارع القرون ، وفى ذلك الوادى الذى لا يكاد يحده البصر ، يسبح خيالك مع الشخوص التى كانت تدب وتتحرك والحياة التى كانت تنبض وتمرح ، ثم إذا الصمت يخيم ، والموت يجثم ، وإذا الجثث والأشلاء والبلى والدمار ، لا حس ولا حركة ، ولا صوت ، انظر وتلفت ، تسمع وأنصت ، فلا ترى إلا السكون العميق والصمت الرهيب ، وما من أحد إلا الواحد الحى الذى لا يموت .

سورة طه

تبدأ هذه السورة وتختم خطابا للرسول ﷺ ببيان وظيفته وحدود تكاليفه ، إنها ليست شقوة كتبت عليه ، وليست عناء يعذب به ، إنما هى الدعوة والتذكرة وهى التبشير والإنذار ، وأمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذى لا إله غيره ، المهيمن على ظاهر الكون وباطنه ، الخبير بظواهر القلوب وخوافيها ، الذى تعنو له الجباه ، ويرجع إليه الناس : طائعهم وعاصيهم ، فلا على الرسول ممن يكذب ويكفر ولا يشقى ؛ لأنهم يكذبون ويكفرون .

تبدأ السورة بالحروف المقطعة ، ويُختار هنا حرفان ينتهيان بإيقاع كإيقاع السورة ، ويقصران ولا يمدان لتنسيق الإيقاع كذلك ، ويتلو هذين الحرفين حديث القرآن فى صورة خطاب إلى الرسول ﷺ ، أنه ما أنزلنا عليك القرآن ليؤدى إلى شقائك به أو بسببه ، ما أنزلناه لتشقى بتلاوته والتعبد به حتى يجاوز ذلك طاقتك ويشق عليك ، فهو ميسر للذكر ، لا تتجاوز تكاليفه طاقة البشر ، ولا يكلفك إلا ما فى وسعك ، ولا يفرض عليك إلا ما فى طوقك والتعبد به فى حدود الطاقة نعمة لا شقوة .

وما أنزلناه عليك لتشقى مع الناس حين لا يؤمنون به ، فلست مكلفًا أن تحملهم على الإيمان حملا ، ولا أن تذهب نفسك عليهم حسرات ، وما كان هذا القرآن إلا للتذكير والإنذار ، والذى يخشى يتذكر حين يذكر ، ويتقى ربه فيستغفر وعند هذا تنتهى وظيفة الرسول ﷺ ، فلا يكلف فتح مغاليق القلوب ، والسيطرة على الأفئدة والنفوس ، إنما ذلك إلى الله الذى أنزل هذا القرآن

وهو المهيمن على الكون كله ، والذى نزل القرآن هو الذى خلق السموات والأرض وهو الرحمن فما نزله على عبده ليشقى ، وهو المهيمن على الكون كله فهو على العرش قد علا وارتفع بما يليق به دون كيفية .

قال ابن كثير : « والمسلك الأسلم فى ذلك طريقة السلف من إمرار ما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ، ولا تحريف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ولا تمثيل » .

ومع الهيمنة والاستعلاء الملك والإحاطة ، فلله ما فى الوجود كله وهو أكبر مما فى السموات وما فى الأرض ، وما بينهما وما تحت الثرى ، وعلم الله يحيط بما يحيط به ملكه ، والخطاب للرسول ﷺ لطمأنة قلبه بأن ربه معه يسمعه ، ولا يتركه وحده يشقى بهذا القرآن ، ويواجه الكافرين بلا سند ، فإذا كان يدعوه جهراً فإنه يعلم السر وأخفى ، والقلب حين يستشعر قرب الله منه وعلمه بسره ونجواه ويطمئن ويرضى ، ويأنس بهذا القرب فلا يستوحش من العزلة بين المكذبين المناوئين ولا يشعر بالغربة بين المخالفين له فى العقيدة والشعور .

ويختم هذا المطلع بإعلان وحدانية الله بعد إعلان هيمنته ، وملكيته وعلمه ، وله الأسماء الحسنى ، ثم يقص الله على رسوله حديث موسى وما يتجلى فيه من رعاية الله وهداه له ، فها هو ذا موسى عليه السلام فى الطريق بين مدين ومصر إلى جانب الطور ، ها هو ذا عائد بأهله بعد أن قضى فترة التعاقد بينه وبين نبى الله شعيب ، وقد خطر له أن يفارق شعيبًا ويستقل بنفسه وبزوجه، ويعود إلى البلد الذى نشأ فيه ، وفى عودته ضل طريقه نعرف هذا من بحثه عن النار ؛ لتكشف له الطريق ، أو يجد عندها القرى والضيافة ،ومن يهديه إلى الطريق .

لقد ذهب يطلب قبسا من النار ويطلب هاديا فى السرى ، ولكنه وجد المفاجأة الكبرى ، وجد المناداة الإلهية ، فكانت تلك الذرة الصغيرة الضعيفة المحدودة تواجه الجلال الذى لا تدركه الأبصار ، الجلال الذى تتضاءل فى ظله الأرض والسموات ، نودى بطريقة ما ، فتلقى بطريقة ما ، فذلك من أمر الله الذى نؤمن بوقوعه ، ولا نسأل عنه ، نودى يا موسى إنك فى الحضرة العلوية فتجرد بقدميك ، وفى الوادى الذى تتجلى عليه الطلعة المقدسة فلا تطأه بنعليك .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ وظيفة الرسول ﷺ تبشير المؤمنين وإنذار الكافرين فما عليه إلا البلاغ .

٢ ـ لا ينتفع بالقرآن ومواعظه وأحكامه إلا من كان فى قلبه خشية لله ، وميل إلى الهداية .

٣ ـ رعاية الرجل لأهله ، وسعيه فى قضاء مصالحهم .

٤ ـ ينبغى مراقبة الله ، فعلمه محيط بكل شىء .

وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ
أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ
عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ
بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا
وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا
يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا
وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ
إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ
مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ
رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن
لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ
أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ
كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ
أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾

٣١٣

معانى الكلمات :

يصد : يصرف .

تردى : تهلك .

أتوكأ : أعتمد .

أهش بها : أهز بها ورق الشجر اليابس فيتساقط .

مآرب : حاجات .

جناحك : جنبك .

بيضاء : لها شعاع يغلب شعاع الشمس .

أزرى : ظهرى وقوتى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أسس رسالة الله الواحدة .

٢ ـ أن نعرف أن لذة القرب لا يشعر بها إلا من عايشها .

٣ ـ أن نقف على قدرة الله تعالى وتأييده رسله بالمعجزات والبراهين الدالة على صدقهم .

المحتوى التربوى :

يعلن السياق التكريم لموسى والاختيار لحمل الرسالة ثم أتى التنبيه للتلقى ، ويتم التلخيص لما يوحى فى ثلاثة أمور مترابطة : الاعتقاد بالوحدانية ، والتوجه بالعبادة ، والإيمان بالساعة، وهى أسس رسالة الله الواحدة ؛ فالألوهية الواحدة فهى قوام العقيدة ، والله فى ندائه لموسى عليه السلام يؤكدها بكل المؤكدات ، بالإثبات المؤكد ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ وبالقصر المستفاد من النفى والاستثناء : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ الأولى لإثبات الألوهية لله ، والثانية لنفيها عن سواه ، وعلى الألوهية تترتب العبادة ، والعبادة تشمل التوجه لله فى كل نشاط الحياة ، ولكنه يخص بالذكر منها الصلاة ، لأن الصلاة أكمل صورة من صور العبادة ، وأكمل وسيلة من وسائل الذكر ؛ لأنها تتمحض لهذه الغاية ، وتتهيأ فيها النفس لهذا الغرض وحده ، وتتجمع للاتصال بالله ، وأما الساعة فهى الموعد

المرتقب للجزاء الكامل العادل ، الذى تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه ، وتسير فى الطريق وهى تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق ، والله سبحانه يؤكد مجيئها ، وأنه يكاد يخفيها ليجزى كل عامل بعمله .

والفطرة السليمة تؤمن من نفسها بأن الحياة الدنيا لا تبلغ فيها الإنسانية كمالها ، ولا يتم فيها العدل تمامه ، وأنه لابد من حياة أخرى يتحقق فيها الكمال المقدرللإنسان ، والعدل المطلق فى الجزاء على الأعمال ، واتباع الهوى هو الذى ينشئ التكذيب بالساعة .

ويتلقى موسى سؤالا لا يحتاج إلى جواب : سؤالا عما فى يمينه ، ولم يكن عن وظيفة العصا فى يده ، ولكنه أدرك أن ليس عن ماهيتها يسأل ، فهى واضحة ، إنما عن وظيفتها معه فأجاب بأقصى ما يعرفه عن تلك العصا : أنه يتوكأ عليها ، و يضرب بها أوراق الشجر ؛ لتتساقط فتأكلها الغنم ، وأنه يستخدمها فى أغراض أخرى من هذا القبيل أجملها ولم يعددها لأن ما ذكره نموذج منها .

ولكن ها هى ذى القدرة القادرة تصنع بتلك العصا فى يده ما لم يخطر له على بال ، تمهيد للتكليف بالمهمة الكبرى، ووقعت المعجزة الخارقة التى تقع فى كل لحظة ، ولكن الناس لا ينتبهون إليها ، وقعت معجزة الحياة ، فإذا العصا حية تسعى ، وقعت المعجزة فدهش لها موسى وخاف ، فطُمئن فاطمأن والتقط الحية ، فإذا هى تعود سيرتها الأولى ، عصا ، ووقعت المعجزة فى صورتها الأخرى ، صورة سلب الحياة من الحى ، فإذا هو جامد ميت ، كما كان من قبل أن تدركه المعجزة الأولى .

وصدر الأمر العلوى مرة أخرى إلى عبده موسى بضم يده إلى جناحه ، ووضعها تحت إبطه ، والسياق يختار للإبط والذراع صورة الجناح لما فيها من رفرفة وطلاقة وخفة فى هذا الموقف المجنح الطليق من ربقة الأرض وثقلة الجسم لتخرج بيضاء لا مرض أو آفة ، ولكن آية أخرى مع آية العصا ، ليرى موسى من آيات ربه الكبرى فيشهد وقوعها بنفسه تحت بصره وحسه ، فيطمئن للنهوض بالتبعة الكبرى .

وإلى هنا لم يكن موسى يعلم أنه منتدب لهذه المهمة الضخمة ، مهمة الذهاب إلى فرعون ودعوته ، وإنه ليعرف من هو فرعون ، فقد ربى فى قصره وشهد طغيانه وجبروته ، وشاهد ما يصبه على قومه من عذاب ونكال، وهو اللحظة فى حضرة ربه ، يحس الرضا والتكريم والحفاوة ، فليسأله كل ما يطمئنه على مواجهة هذه المهمة العسيرة، ويكفل له الاستقامة على طريق الرسالة .

لقد طلب إلى ربه أن يشرح له صدره ، وانشراح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة ، ويحيل عناءه لذة ، ويجعله دافعا للحياة لا عبئًا يثقل خطا الحياة .

وطلب إلى ربه أن ييسر له أمره ، وتيسير الله لعباده هو ضمان النجاح ، وإلا فماذا يملك الإنسان بدون هذا التيسير؟ ماذا يملك ، وقواه محدودة وعلمه قاصر والطريق طويل وشائك ومجهول ؟ !

وطلب إلى ربه أن يحل عقدة لسانه فيفقهوا قوله ، وقد روى أنه كانت بلسانه حبسه، والأرجح أن هذا هو الذى عناه ، وقد دعا ربه فى أول الأمر دعاء شاملا بشرح الصدر وتيسير الأمر ، ثم أخذ يحدد ويفصل ما يعينه على أمره وييسر له تمامه .

وطلب أن يعينه الله بمعين من أهله ؛ هارون أخيه ، فهو يعلم عنه فصاحة اللسان ، وثبات الجنان وهدوء الأعصاب ، فطلب إلى ربه أن يعينه بأخيه يشد أزره ويقويه ، ويتروى معه فى الأمر الجليل الذى هو مقدم عليه .

والأمر الجليل الذى هو مقدم عليه يحتاج إلى التسبيح الكثير ، والذكر الكثير والاتصال الكثير بالسميع البصير ، فموسى ﷺ يطلب أن يشرح الله صدره وييسر له أمره ، ويحل عقدة من لسانه ، ويعينه بوزير من أهله ، كل أولئك لا ليواجه المهمة مباشرة ؛ ولكن ليتخذ ذلك كله مساعدًا له ولأخيه على التسبيح الكثير والذكر الكثير ، والتلقى الكثير من السميع البصير الذى يعرف الحال ، ويطلع على الضعف والقصور ، ويعلم الحاجة إلى العون والتدبير .

لقد أطال موسى سؤله ، وبسط حاجته ، وكشف عن ضعفه ، وطلب العون والتيسير والاتصال الكثير ، وربه يسمع له وهو ضعيف فى حضرته ، ناداه وناجاه ، فها هو ذا الكريم المنادى لا يخجل ضيفه ، ولا يرد سائله ، ولا يبطئ عليه بالإجابة الكاملة هكذا مرة واحدة فى كلمة واحدة ، فيها إجمال يغنى من التفصيل ، وفيها إنجاز لا وعدٌ ولا تأجيل كل ما سألته أعطيته ، وفيها مع الإنجاز عطف وتكريم وإيناس بندائه باسمه يا موسى ، وأى تكريم أكبر من أن يذكر الكبير المتعال اسم عبد من العباد ؟

قال صاحب الأساس : « من كلام موسى ﷺ عندما سأل الله أن يؤيده بأخيه نفهم أدب الأخوة فى الله والغاية منها ، فالأدب شد الأزر ، والاشتراك فى الأمر ، والهدف ذكر الله وتسبيحه ، فما لم يتحقق بالأخوة كثرة الذكر لا تكون أخوة خالصة فى الله وإذا كان لها هدف آخر غير ذلك فليست أخوة فى الله » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ المتعة والراحة والأمن والطمأنينة لا تكون إلا فى رحاب الله من خلال طاعته .

٢ ـ لا خوف ولا فزع فى الطريق إلى الله ، فالله عز وجل يؤيد رسله والمؤمنين .

٣ ـ على المسلم أن يعد للأمر عدته ، ويستعين بما يساعده على الوصول إلى غايته .

إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ
فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ
عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ
فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ
عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ
فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾
وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا
فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا
لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ
أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ
﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ
ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ
كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾
٣١٤

معانى الكلمات :

التابوت : الصندوق .

اليم : النهر .

تصنع : تربى .

يكفل : يضم ويحفظ .

نقر : تُسرُّ .

فتناك : خلصناك .

تنيا : تفترا .

يفرط : يعجل الأذى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الأخذ بالأسباب فى الدعوات وغيرها لابد منه .

٢ ـ أن نراعى الحكمة فى دعوة الناس إلى ربهم .

٣ ـ أن نتعلم عدم المؤاخذة على الخوف حيث وجدت أسبابه .

المحتوى التربوى :

طال التجلى وطال النجاء ، وأجيب السؤال وقضيت الحاجة ، وفضل الله لا خازن له ، ورحمة الله لا ممسك لها ، فهو يغمر عبده بمزيد من فضله ، وفيض من رضاه ، فيستبقيه فى حضرته ليزيده اطمئنانا وأنسا بموصول رحمته وقديم رعايته ، وكل لحظة تمر وهو فى هذا المقام الوضىء هى متاع ونعمى وزاد ورصيد .

إن موسى ذاهب لمواجهة أقوى ملك فى الأرض وأطغى جبار ، إنه ذاهب إلى خضم من الأحداث والمشكلات مع فرعون أول الأمر ، ثم مع قومه بنى إسرائيل وقد أذهم الاستعباد الطويل ، وأفسد فطرتهم ، وربه يطلعه على أنه لن يذهب غفلاً من التهيؤ والاستعداد ، وأنه لم

يرسل إلا بعد التهيئة والإعداد ، وأنه صنع على عين الله منذ زمان ، ودرب على الميثاق وهو طفل رضيع ، ورافقته العناية وسهرت عليه وهو صغير ضعيف ، وكان تحت سلطان فرعون وفى متناوله وهو مجرد من كل عدة ، ومن كل قوة فلم تمتد إليه يد فرعون ؛ لأن يد القدرة كانت تسنده وعين القدرة كانت ترعاه فى كل خطاه ، فلا عليه اليوم من فرعون ، وقد بلغ أشده وربه معه، قد اصطنعه لنفسه ، واستخلصه واصطفاه .

فالمنة قديمة ممتدة مطردة ، سائرة فى طريقها معك منذ زمان فلا انقطاع لها إذن بعد التكليف ، فلقد مننا عليك إذ أوحينا إلى أمك وألهمناها ما يلهم فى مثل حالها ، ذلك الإلهام ، قذف بالطفل فى التابوت ، وقذف فى اليم بالتابوت ، وإلقاء للتابوت على الساحل ، حركات كلها عنف وكلها خشونة ، ثم يتسلمه عدو لى وعدو له .

فى زحمة هذه المخاوف كلها تجعل القدرة القادرة من المحبة الهينة اللينة درعا تتكسر عليها الضربات ، وتتحطم عليها الأمواج ، وتعجز قوى الشر والطغيان أن تمس حاملها بسوء ولو كان طفلا رضيعا لا يصول ولا يجول ، بل لا يملك أن يقول .

وكان من تدبير الله أن جعل الطفل لا يقبل ثدى المرضعات ، وفرعون وزوجه وقد تبينا الطفل يبحثان له عن مرضع ، فيتابع الناس ، وتروح أخت موسى بإيحاء من أمها تقول لهم . هل أدلكم على من يكفله ؟ وتجيء لهم بأمه فيلقم ثديها ، وهكذا يتم تدبير الله للطفل وأمه ، ويكون الأمن بإلقائه بين هذه المخاوف .

ومنة أخرى : حين قتل المصرى وكان ينوى دفعه ، وتحرج ضميره من اندفاعه ، فهداه ربه إلى الاستغفار فشرح صدره بهذا ونجاه من الغم ، وكانت التربية فى هذا الموقف العسر بالخوف والهرب من القصاص والغربة ومفارقة الأهل والوطن ، وبالخدمة ورعى الغنم ، وهو الذى تربى فى قصر أعظم ملوك الأرض ، وجاز الامتحان وتهيأت الظروف والأحوال فى مصر ، وبلغ العذاب ببنى إسرائيل مداه ، فى ذلك الوقت جيء بموسى من أرض مدين خالصًا مستخلصا ممحضا لله ولرسالته ودعوته ، ليس به شيء من هذه الدنيا ولا لهذه الدنيا .

ويأتى الأمر العلى لمن صنع على عين الله واستخلص لرسالته : اذهب أنت وأخوك مزودين بآياتى وحججى وبراهينى ومعجزاتى ولا تبطئا ولا تفترا فى ذكرى ، اذهبا إلى فرعون فقد طغى وتجبر وعتا ، فقولا له القول اللين ، فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم ولا يهيج الكبرياء الزائف الذى يعيش به الطغاة ، ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان ، راجين أن يتذكر ويخشى .

يقول صاحب الظلال : « الداعية الذى ييأس من اهتداء أحد بدعوته لا يبلغها بحرارة ، ولا يثبت عليها فى وجه الجحود والإنكار والأخذ بالأسباب فى الدعوات وغيرها لابد منه » .

ويطوى السياق المسافات والأبعاد والأزمان ، فإذا هارون مع موسى ، وإذا هما معا يكشفان لربهما عن خوفهما من مواجهة فرعون ، ومن التسرع فى أذاه ، ومن طغيانه إذا دعواه ، هنا يجيئهما الرد الحاسم الذى لا خوف بعده ، ولا خشية معه بأنه معهما ، وكان هذا الإجمال يكفى ، ولكنه يزيدهما طمأنينة ولمسا بالحس للمعونة ، فما يملك فرعون والله معهما يسمع ويرى ، ومع الطمأنينة الهداية إلى صورة الدعوة وطريق الجدال ، فيذهبا إلى فرعون ، وكان البدء بإيضاح قاعدة رسالتهما أنهما من عند رب الناس ، ثم كان الإيضاح لموضوع الرسالة وهو استنقاذ بنى إسرائيل والعودة بهم إلى عقيدة التوحيد ، وإلى الأرض المقدسة ؛ ثم كان الاستشهاد على صدق رسالتهما بمجيئهما بآية من رب العالمين ، وكان الترغيب والاستحالة بالسلام عليه إن اتبع الهدى .

ثم كان التهديد والتحذير غير المباشرين كى لا يثيرا كبرياءه وطغيانه ، فقد أخبرهما الله أن العذاب لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته ، فلعله لا يكون ممن كذب وتولى ، هكذا ألقى الله الطمأنينة على موسى وهارون ، وهكذا رسم لهما الطريق ، ودبر لهما الأمر ليمضيا آمنين عارفين هادين .

وهنا يسدل الستار ليرفع ، فإذا هما أمام الطاغية فى حوار وجدال ، لقد أتيا فرعون ، ويبدأ المشهد بما دام بينه وبين موسى عليه السلام من حوار ، ويسأل موجها الكلام إلى موسى لما بدا له أنه هو صاحب الدعوى : من ربكما الذى تتكلمان باسمه وتطلبان إطلاق بنى إسرائيل ؟

يقول صاحب الظلال : « والوصف الذى يحكيه القرآن الكريم عن موسى عليه السلام يلخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود : هبة الوجود لكل موجود ، وهبة خلقه على الصورة التى خلق بها ، وهبة هدايته للوظيفة التى خلق لها .. » .

ويثنى فرعون بسؤال آخر : ما شأن القرون التى مضت من الناس ؟ أين ذهبت ومن كان ربها ؟ وما يكون شأنها وقد هلكت لا تعرف إلهها هذا ؟

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ رحمة الله تعالى ورعايته لكل من يحمل دعوته ولعباده المؤمنين .

٢ ـ حنان الأمومة وشدة عاطفتها نحو أبنائها ، مما يوجب على الأبناء مراعاة حق الوالدين وإكرامهما .

٣ ـ الدعوة إلى الله تتطلب من الداعية أن يكون لطيفا فى دعوته ، رفيقا بمن يدعوه .

قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا
وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا
خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ
أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا
مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ
فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا
سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى
﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم
مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ
وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا
النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم
مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا
كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

معانى الكلمات

سلك : جعل .

سبلا : طرقا .

أزواجا : أصنافا وأنواعا .

النهى : العقول السليمة .

آياتنا : معجزاتنا .

سوى : وسطا .

فيسحتكم : فيهلككم .

المثلى : الفضلى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على بعض الآيات الكونية التى تدل على قدرة الخالق وألوهيته .

٢ ـ أن نقف على كبر فرعون وصلفه وطغيانه .

٣ ـ أن نعلم مشروعية المباراة لإظهار الحق وإبطال الباطل .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فيحيل موسى جواب السؤال إلى ربه الذى لا يفوت علمه شىء ولا ينسى شيئا ، فهو الذى يعلم شأن تلك القرون كلها فى ماضيها وفى مستقبلها ، والغيب لله والتصرف فى شأن البشر لله ، ويستطرد فيعرض على فرعون آثار تدبير الله فى الكون وآلائه على بنى الإنسان فيختار بعض هذه الآثار المحبطة ، فالأرض كلها مهد للبشر فى كل مكان وزمان ، مهد كمهد الطفل وما البشر إلا أطفال هذه الأرض ، يضمهم حضنها ويغذوهم درها ، وهى ممهدة لهم كذلك للسير والحرث والزرع والحياة ، جعلها الخالق كذلك يوم أعطى كل شىء خلقه .

والخالق المدبر الذى جعل الأرض مهدا ، شق للبشر فيها طرقا وأنزل من السماء ماء ، ومن ماء المطر تتكون الأنهار وتفيض ، فيخرج النبات أزواجا من أجناس كثيرة ، وقد شاء الخالق

المدبر أن يكون النبات أزواجا كسائر الأحياء ، وهى ظاهرة مطردة فى الأحياء كلها ، والنبات فى الغالب يحمل خلايا التذكير ، وخلايا التأنيث الواحدة ، وأحيانا يكون اللقاح فى نبتة الفصائل والأنواع ، وما من عقل مستقيم يتأمل هذا النظام العجيب ثم لا يطلع فيه على آيات تدل على الخالق المدبر الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

ويكمل السياق حكاية قول موسى مباشرة بقول من الله جل وعلا : من هذه الأرض التى جعلناها لكم مهدا ، وسلكنا لكم فيها سبلا ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا به أزواجا من نبات شتى للأكل والمرعى ، من هذه الأرض خلقناكم ، وفى هذه الأرض يعيدكم ، ومنها يخرجكم بعد موتكم .

فالإنسان ـ كما ذكر الشيخ أبو زهرة : « عظامه ولحمه نبت من تراب ، فآدم أبوه ، وأبو الخليقة خلق من طين ثم كان غذاء ذريته من نبات الأرض الذى ينبت فى الطين ، ومن حيوان الأرض الذى يتغذى من نباتها ، وهكذا كان لحمه ، ولقد كان خطاب الله تعالى لفرعون الذى استكبر واستعلى ليخفف من غلوائه » .

ومع رؤية فرعون الآيات الكونية التى وجهه إليها موسى عليه السلام فيما حوله ، وآيتى العصا واليد يحملها هنا لأنهما بعض آيات الله ، وما فى الكون منها أكبر وأبقى ، وهكذا لم يمض فرعون فى الجدل ، لأن حجة موسى عليه السلام فيه واضحة وسلطانه فيه قوى ، وهو يستمد حجته من آيات الله فى الكون ، ومن آياته الخاصة معه ؛ إنما لجأ إلى اتهام موسى بالسحر الذى يجعل العصا حية تسعى ، ويجعل اليد بيضاء من غير سوء ، وقد كان السحر أقرب خاطر إلى فرعون ؛ لأنه منتشر فى ذلك الوقت فى مصر ، وإذا كان ما أقدم عليه موسى هو السحر فما أسهل الرد عليه ، فإن عند فرعون سحرا مثل هذا السحر .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا يفهم الطغاة أن دعوى أصحاب العقائد إنما تخفى وراءها هدفا من أهداف هذه الأرض ، وأنها ليست سوى ستار للملك والحكم ، ثم هم يرون مع أصحاب الدعوات آيات ، إما خارقة كآيات موسى ، وإما مؤثرة فى الناس تأخذ طريقها إلى قلوبهم وإن لم تكن من الخوارق، فإذا الطغاة يقابلونها بما يماثلها ظاهريا ، سحر نأتى بسحر مثله ، كلام نأتى بكلام من نوعه ، صلاح نتظاهر بالصلاح ، عمل طيب نرائى بعمل طيب ، ولا يدركون أن للعقائد رصيدا من الإيمان ، ورصيدا من عون الله ، فهى تغلب بهذا وبذاك ، لا بالظواهر والأشكال » .

وهكذا طلب فرعون إلى موسى تحديد موعد المباراة مع السحرة ، وترك له اختيار ذلك الموعد للتحدى ، وشدد عليه فى عدم إخلاف الموعد زيادة فى التحدى ، وأن يكون الموعد فى مكان مفتوح مكشوف مبالغة فى التحدى ، وقبل موسى عليه السلام تحدى فرعون له ، واختار الموعد يوم عيد من الأعياد الجامعة ، يأخذ فيه الناس فى مصر زينتهم ، ويتجمعون فى الميادين والأماكن

المكشوفة ، وطلب أن يجمع الناس ضحى ؛ ليكون المكان مكشوفا والوقت ضاحيا ، فقابل التحدى بمثله وزاد عليه اختيار الوقت فى أوضح فترة من النهار وأشدها تجمعا فى يوم العيد .

وانتهى المشهد الأول من مشاهد اللقاء بين الإيمان والطغيان فى الميدان ، ويسدل الستار ليرفع على مشهد المباراة ، ويجمل السياق كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه ، وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع وتحميس ووعد بالمكافأة ، وما فكر فيه ، وما دبر هو ومستشاروه يجمله فى آية واحدة قصيرة فى ثلاث حركات متواليات : ذهاب فرعون ، وجمع كيده ، والإتيان به .

ورأى موسى عليه السلام قبل الدخول فى المباراة أن يبذل لهم النصيحة ، وأن يحذرهم عاقبة الكذب والافتراء على الله ، لعلهم يثوبون إلى الهدى ، ويدعون التحدى بالسحر والسحر افتراء ، والكلمة الصادقة تلمس بعض القلوب وتنفذ فيها ، ويبدو أن هذا الذى كان ، فقد تأثر بعض السحرة بالكلمة المخلصة ، فتلجلج فى الأمر ، وأخذ المصرون على المباراة يجادلونهم همسا خيفة أن يسمعهم موسى .

وجعل بعضهم يحمس بعضا ، وراحوا يهيجون فى المترددين الخوف من موسى وهارون اللذين يريدان الاستيلاء على مصر وتغيير عقائد أهلها ، مما يوجب مواجهتهما يدًا واحدة بلا تردد ولا نزاع ، واليوم هو يوم المعركة الفاصلة والذى يغلب فيها الفالح الناجح .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة الصادرة عن عقيدة ، كالقذيفة فى معسكر المبطلين وصفوفهم ، فتزعزع اعتقادهم فى أنفسهم وفى قدرتهم ، وفى ماهم عليه من عقيدة وفكرة، وتحتاج إلى مثل هذا التحميس والتشجيع ،وموسى وأخوه رجلان اثنان ، والسحرة كثيرون ، ووراءهم فرعون وملكه وجنده وجبروته وماله ، ولكن موسى وهارون كان معهما ربهما يسمع ويرى » .

ولعل هذا هو الذى يفسر لنا تصرف فرعون الطاغية المتجبر ، وموقف السحرة ومن ورائهم فرعون ، فمن هو موسى ومن هو هارون من أول الأمر حتى يتحداهما فرعون ويقبل تحديهما ، ويجمع كيده ثم يأتى، ويحشر السحرة ويجمع الناس، ويجلس هو والملأ من قومه ليشهدوا المباراة؟ وكيف قبل فرعون أن يجادله موسى ويطاوله ؟ وموسى فرد من بنى إسرائيل المستعبدين المستذلين تحت قهره ؟ ! إنها الهيبة التى ألقاها الله على موسى وهارون وهو معهما يسمع ويرى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ من كان الله معه فلا يخاف من شىء ولا يحزن على شىء .

٢ ـ حرمة الكذب على الله تعالى ، وإنه ذنب عظيم يسبب دمار الكاذب وخسرانه .

٣ ـ للعقائد رصيد من الإيمان ، ورصيد من عون الله وهى غالبة لمن يقف ضدها فلا خوف على أصحابها .

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ
بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ
﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا
كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا
قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ
لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ
أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ
الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا
عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا
فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ
عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾
٣١٦

معانى الكلمات :

أوجس : أحس .

الأعلى : الفائز .

تلقف : تبتلع .

نؤثر : نختار .

فطرنا : أوجدنا .

أبقى : أدوم ثوابًا .

خالدين : ماكثين .

تزكى : طهَّر نفسه من دنس الشرك والكفر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن شجاعة المؤمن لا يرهبها خوف بقتل ولا بصلب .

٢ ـ أن نعرف أن عذاب الدنيا يتحمل ويصبر عليه بالنظر إلى عذاب الآخرة .

٣ ـ أن نقف على جزاء كل من الكفر والمعاصي والإيمان والعمل الصالح فى الدار الآخرة

المحتوى التربوى :

كانت استثارة الهمم ، والدعوة إلى التجمع والترابط والثبات ، وإقدام السحرة وهى دعوة؟ الميدان إلى النزال ، يبدو فيها التماسك وإظهار النصفة والتحدى ، وقبل موسى التحدى وترك لهم فرصة البدء ، واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة ، ولكن ماذا ؟ إنه لسحر عظيم فيما يبدو ، وحركة مفاجئة ماجت بها الساحة حتى موسى أوجس فى نفسه خيفة ومعه ربه يسمع ويرى ، حتى يذكره ربه بأن معه القوة الكبرى ، فلا تخف فأنت الأعلى ؛ معك الحق ومعهم الباطل ، معك العقيدة ومعهم الحرفة ، معك الإيمان بصدق ما أنت عليه ، ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة،أنت متصل بالقوة الكبرى وهم يخدمون مخلوقا بشريا فانيا مهما يكن طاغية جبارا.

لا تخف وألق ما فى يمينك تبتلع ما صنعوا ، وقد يبدو باطله ضخما فخما ، مخيفا لمن يغفل عن قوة الحق الكامنة الهائلة التى لا تتبختر ولا تتطاول ولا تتظاهر ، ولكنها تدمغ الباطل فى النهاية فإذا هو زاهق وتلقفه فتطويه ، فإذا هو يتوارى .

وألقى موسى ووقعت المفاجأة الكبرى ، ويصور السياق وقع المفاجأة فى نفوسهم فى صورة تحول كامل فى مشاعرهم ووجدانهم وقد انبعث النور وأشرق الظلال ، فلمسة الإيمان للقلب البشرى تحوله فى لحظة من الكفر إلى الإيمان، ولكن أنى للطغاة أن يدركوا كيف تتقلب القلوب؟ وهم قد نسوا لطول ما طغوا وبغوا ورأوا الأتباع ينقادون الإشارة منهم ، نسوا أن الله هو مقلب القلوب ، وأنها حين تتصل به وتستمد منه وتشرق بنوره لا يكون لأحد عليها سلطان .

وعدل فرعون إلى استعمال جاهه وسلطانه فى السحرة ، فتهددهم وتوعدهم على تصديقهم له وإيمانهم به ، ويلتفت إلى سر استسلامهم فى نظره وهو أنه الذى علمهم السحر ، وكان التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذى يعتمد عليه الطغاة ، ويسلطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح ، وكان تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف والتصليب فى جذوع النخل ، والاستعلاء بالقوة الغاشمة قوة الوحوش فى الغابة ، القوة التى تمزق الأحشاء والأوصال ، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب .

ولكن كان قد فات الأوان ، وكانت اللمسة الإيمانية قد وصلت قوية قويمة وقد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لا تبالى أن تنظر بعدها إلى الأرض ، وما بها من عرض زائل ، ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه .

إنها لمسة الإيمان فى القلوب التى كانت منذ لحظة تعنو لفرعون ، وتعد القربى منه مغنما يتسابق إليه المتسابقون ، فإذا هى بعد لحظة تواجهه فى قوة ، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه ، وهانت عليهم أنفسهم فى الله عز وجل ، فلن يختاروا فرعون على ما حصل لهم من الهدى واليقين ، وكيف يختارون فرعون على خالقهم الذى أنشأهم من العدم والمستحق للعبادة والخضوع .

وبلغ القلب تقواه فثبتت كلمات الحق على لسانه ، وارتعدت فرائص الباطل أمام عينيه ، فكان كل شىء هينا ، وكل عظيم حقيرا ، وأضحى فرعون فى سلطانه كحشرة فى ترابها ، وأمست الدنيا عجوزا لا يلتفت إليها ، وكيف يهتز قلب له أمل بالله أمام باطل ربط حبائله يكيد شيطان ، فليقض فرعون ما هو قاض فما له سلطان إلا سلطان دنياه وهى هينة قصيرة ، وما تفعل دنيا بقوم قد اتصلوا برب الدنيا ، لا يملكون له عصيانا ، يرجون عفوه وغفرانه ، والله أبقى مغنمًا وجزاء ، وخير قسمة وجوارًا .

وألهم السحرة الذين آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المعلم المستعلى ، فإذا كان يتهددهم بمن هو أشد وأبقى ، فها هى ذى صورة لمن يأتى ربه مجرما هى أشد عذابا وأدوم ، فلا هو ميت فيستريح ، ولا هو حى فيتمتع ، إنما هو العذاب فى جهنم الذى لا ينتهى إلى موت ولا ولا ينتهى إلى حياة ، وفى الجانب الآخر الدرجات العلا ، جنات للإقامة ندية بما يجرى تحت غرفاتها من أنهار ، وذلك جزاء من تطهر من الآثام .

وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر ، وواجهته بكلمة الإيمان القوية ، وباستعلاء الإيمان الواثق ، وبتحذير الإيمان الناصع ، وبرجاء الإيمان العميق ، ومضى هذا المشهد فى تاريخ البشرية إعلانا لحرية القلب البشرى باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض وعلى الطمع فى المثوبة والخوف من السلطان ، وما يملك القلب البشرى أن يجهر بهذا الإعلان القوى إلا فى ظلال الإيمان .

يقول صاحب الأساس : « رأينا نموذجا على الإيمان الصادق بالله ورسوله ، ونموذجا عن الإيمان اليقينى باليوم الآخر ، وما هى آثار ذلك ، فهؤلاء سحرة فرعون عندما خالط الإيمان بالله واليوم الآخر قلوبهم ،أعلنوا إيمانهم فى وجه فرعون واستهانوا بكل عقوباته واتهاماته وتهديداته، ولم يبق فى قلوبهم إلا الرغبة فى رضوان الله ونيل ثوابه وإذا كان السياق قد قص علينا ما يفعل الإيمان ، فقد قص علينا كذلك من خبر فرعون ما عرفنا به أن عدم الإيمان بوحى الله ليس إلا أثر الكبر والعنجهية .

ورأينا كيف أن السحرة تذكروا فلم يكن الوحى شقاء لموسى ولا لهم ، فالشقاء : هو بقاء الإنسان على الكفر ورفضه للحق ، والعبرة بالخواتيم فى الدنيا والآخرة ، ولئن كانت خاتمة السحرة شهادة ، فإنها سعادة إذ هى أمنية المؤمنين وقد نالوا رضوان الله ، ولكن كيف كانت عاقبة فرعون ، وماذا أعد له فى الآخرة ؟ إنه لا سعادة بدون هداية ، ولا شقاء معها ، ولا فلاح بدون إيمان ولا شقاء معه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ ألا ييأس المسلم إذا لم يهتد بدعوته ، وعليه مواصلة جهاده فى الأمل مستخدما كل ما فى إمكانه .

٢ ـ لا يؤثر الكفر على الإيمان والباطل على الحق والخرافة على الدين الصحيح إلا أحمق جاهل .

٣ ـ الآخرة خير وأبقى ، وما عند الله ما له من نفاد .

٤ ـ قوة القلب ويقينه أبلغ عوامل الانتصار .

ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا
في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى (٧٧) فأتبعهم فرعون
بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم (٧٨) وأضل فرعون قومه
وما هدى (٧٩) يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم
جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى (٨٠) كلوا
من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي
ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى (٨١) وإني لغفار لمن تاب
وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى (٨٢) ۞ وما أعجلك عن
قومك يا موسى (٨٣) قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك
رب لترضى (٨٤) قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم
السامري (٨٥) فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال
يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم
العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم
موعدي (٨٦) قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا
أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري (٨٧)

معاني الكلمات :

يبسا : يابسا لا ماء فيه ولا طين .

دركا : إدراكا ولحاقا أو تبعة .

غشي : علا وغمر .

المن : مادة صمغية حلوة كالعسل .

السلوى : الطائر المعروف بالسمان .

فتنا : ابتلينا .

ملكنا : قدرتنا وطاقتنا .

أوزارًا : أثقالا أو آثاما .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن النصر لا يتحقق فى عالم الواقع إلا بعد تمامه فى عالم الضمير .

٢ ـ أن نعرف أن الإيمان الكامل أثر عن الإيمان والعمل الصالح والتوبة .

٣ ـ أن نتعلم أن غدر بنى إسرائيل ونقضهم العهود طبيعة متأصلة فيهم من قديم الزمان

المحتوى التربوى :

يرفع الستار على حلقة من القصة جديدة ؛ إنه مشهد انتصار الحق والإيمان فى واقع الحياة المشهود ، بعد انتصارها فى عالم الفكرة والعقيدة ، فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر ، وانتصار الإيمان فى قلوبهم على الرغب والرهب ، والتهديد والوعيد ، فالآن ينتصر الحق على الباطل ، والهدى على الضلال ، والإيمان على الطغيان فى الواقع المشهود ، والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول ، فما يتحقق النصر فى عالم الواقع إلا بعد تمامه فى عالم الضمير .

وما يستعلى أصحاب الحق فى الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق فى الباطن ، فللحق والإيمان حقيقة متى تجسمت فى المشاعر أخذت طريقها فاستعلت ليراها الناس فى صورتها الواقعية ، فأما إذا ظل الإيمان مظهراً لم يتجسم فى الحق ، والحق شعاراً لا ينبع من الضمير ، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان؛ لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء فى مظهر الحق والإيمان .

يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان فى النفس ، وحقيقة الحق فى القلب فتصبحا أقوى من حقيقة القوى المادية التى يستعلى بها الباطل ويصول بها الطغيان ، وهذا هو الذى كان فى موقف موسى عليه السلام من السحر والسحرة ، وفى موقف السحرة من فرعون وملئه ، ومن ثم انتصر الحق فى الأرض كما يعرضه هذا المشهد فى سياق السورة .

ولا يطيل السياق فى مشهد الخروج والوقوف أمام البحر ، بل يبادر بعرض مشهد النصر بلا مقدمات كثيرة ؛ لأن مقدماته كانت فى الضمائر والقلوب ، وإن هو إلا الإيحاء لموسى أن يخرج بعباد الله من بنى إسرائيل ليلاً ، فيضرب لهم طريقا فى البحر يبسا بدون تفصيل ولا تطويل ، مطمئنا إلى أن عناية الله ترعاهم فلا يخاف أن يدركه فرعون وجنوده ، ولا يخشى من البحر الذى اتخذ له طريقا يابسا فيه ، ويد القدرة التى أجرت الماء وفق الناموس الذى أرادته قادرة على أن تكشفه بعض الوقت عن طريق يابس فيه .

ويتبع فرعون بجنوده موسى ويجمل السياق كذلك ما غشى فرعون وقومه ولا يفصله ، ليبقى وقعه فى النفس شاملا مهولا ، وقاد فرعون قومه إلى الضلال والبحر ، وكلاهما ضلال يؤدى إلى البوار ، ونقف أمام العبرة التى يتركها المشهد ونتسمع لإيقاعه فى القلوب ، فلقد تولت يد القدرة إدارة المعركة بين الإيمان والطغيان ، فلم يتكلف أصحاب الإيمان فيها شيئا سوى اتباع الوحى والسرى ليلا ، ذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين فى عالم الواقع ، ولكن بعد أن اكتملت حقيقة الإيمان فى نفوس الذين لا يملكون قوة سواها ، بعد أن استعلن الإيمان فى وجه الطغيان لا يخشاه ولا يرجوه ، ولا يرهب وعيده ولا يرغب فى شىء مما فى يده ، وبلغت المعركة بين الإيمان والطغيان فى عالم القلب إلى هذا الحد ، تولت يد القدرة راية الحق لترفعها عالية ، وتنكس راية الباطل بلا جهد من أهل الإيمان .

وفى ظلال النصر والنجاة يتوجه الخطاب إلى الناجين بالتذكير والتحذير ، كى لا ينسوا ولا يبطروا ، ولا يتجردوا من السلاح الوحيد الذى كان لهم فى المعركة فضمنوا به النصر والنجاح ، فلقد جاوزوا منطقة الخطر، وانطلقوا ناجين ناحية الطور ، ونزل عليهم المن والسلوى فى الصحراء ، قريب المتناول سهل التناول .

وهو يذكرهم بهذه النعم ليأكلوا من الطيبات التى يسرها لهم ، وتنذرهم من الطغيان فيها بالبطنة والانصراف إلى لذائذ البطون والغفلة عن الواجب الذى هم خارجون له ، والتكليف الذى يعدهم ربهم لتلقيه ، ويسميه طغيانا وهم قريبو العهد بالطغيان ، ولقد هوى فرعون منذ قليل ، هوى عن عرشه وهوى فى الماء ، والهوّى إلى أسفل يقابل الطغيان والتعالى ، وإلى جانب التحذير والإنذار يفتح باب التوبة لمن يخطئ ويرجع .

يقول صاحب الظلال : « والتوبة ليست كلمة تقال ، إنما هى عزيمة فى القلب يتحقق مدلولها بالإيمان والعمل الصالح ، ويتجلى أثرها فى السلوك العملى فى عالم الواقع ، فإذا وقعت التوبة وصح الإيمان وصدقه العمل ، فهنا يأخذ الإنسان فى الطريق على هدى من الإيمان ، وعلى ضمانة من العمل الصالح ، فالاهتداء هنا ثمرة ونتيجة للمحاولة والعمل » .

ويرفع مشهد المناجاة الثانية إلى جانب الطور الأيمن وقد غلب الشوق على موسى إلى مناجاة ربه ، والوقوف بين يديه ، وقد ذاق حلاوتها من قبل فهو إليها مشتاق عجول ، ووقف فى حضرة مولاه ، وهو لا يعلم ما وراءه ، ولا ما أحدث القوم بعده حين تركهم فى أسفل الجبل ، وهنا ينبئه ربه بما كان خلفه ، فما يكاد موسى يتركهم فى رعاية هارون ويبعد عنهم قليلا حتى تتخلخل عقيدتهم كلها وتنهار أمام أول اختبار ، ولم يكن بد من اختبارات متوالية وابتلاءات متكررة لإعادة بنائهم النفسى ، وكان أول ابتلاء هو ابتلاؤهم بالعجل الذى صنعه لهم السامرى ، ولم يكن لدى موسى علم بهذا الابتلاء .

وينهى السياق موقف المفاجأة على عجل ويطويه ليصور انفعال موسى عليه السلام مما علم من أمر الفتنة ، ومسارعته بالعودة وفى نفسه حزن وغضب ، وراح يوبخ قومه ويسألهم فى حزن وغضب أما وعدكم ربكم على لسانى كل خير فى الدنيا والآخرة ؛ وقد وعدهم الله بالنصر ودخول الأرض المقدسة فى ظل التوحيد ، ولم يمض على هذا الوعد وإنجاز مقدماته طويل وقت ، ويؤنبهم فى استنكار : أطال عليكم انتظار ما وعد الله ؟ فعملكم هذا عمل من يريد أن يحل عليه غضب من الله ، أتعمدتم حلول الغضب فأخلفتم موعدى .

وعندئذ يعتذرون بذلك العذر العجيب : بأن الأمر كان أكبر من طاقتنا وما كان الإخلاف فى قدرتنا ، وأخبروه عن تورعهم المزعوم عما كان بأيديهم من حلى القبط الذى كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر فألقيناها عنا ثم جاء ذلك السامرى فألقى عليها تلك القبضة التى أخذها من أثر الرسول .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ تحريم الإسراف والظلم وكفر النعم .

٢ ـ ذم العجلة وبيان آثارها الضارة .

٣ ـ الحث على طلب رضا الله تعالى ولكن بما يحب أن يتقرب إليه به .

٤ ـ مشروعية الغضب لله تعالى والحزن على ترك عبادته بمخالفة أمره ونهيه .

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ
وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا
يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ
يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟
أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ
﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ
أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ
إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ
قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ
بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ
فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ
فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ
مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ
عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ
إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾
٣١٨

معانى الكلمات :

جسدا : مجسداً .

نبرح : نترك .

منعك : حملك .

ترقب : تحفظ .

سولت : زينت .

لا مساس : لا تمسنى ولا أمسك .

ظلت : بقيت .

وسع : أحاط وأحصى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن روح الورع لا تكفى بل ينبغى معها العلم والوعى .

٢ ـ أن نقف على فن العتاب والاعتذار .

٣ ـ أن نربى أنفسنا على الغيرة والغضب لدين الله عز وجل .

المحتوى التربوى :

صاغ السامرى من الحلى عجلا وجعل له منافذ إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتا كصوت الخوار ولا حياة فيه ولا روح فهو جسد ، والجسد يطلق على الجسم الذى لا حياة فيه ، وما كاد القوم يرون عجلا ذهبا يخور حتى نسوا ربهم الذى أنقذهم من الذل،وعكفوا على عجل الذهب ، وفى بلاهة فكر وبلادة روح قالوا : إن العجل إلههم وإله موسى ، راح يبحث عنه على الجبل وهو هنا معنا ، وقد نسى موسى الطريق إلى ربه وضل عنه .

يقول صاحب الأساس : « فيما فعله السامرى وقصه الله علينا درس بليغ جداً ، فقد استغل السامرى روح الورع التى رباها موسى ﷺ فى أتباعه ليوجهها توجيها سيئا يخدم أغراضه الكافرة ، وذلك قد يحدث دائما إذا لم يوجد علم ووعى ، وكل فرد من المسلمين على غاية من العلم والوعى فإن استعدادهم للفتنة يبقى قائما ، وقد تكون الفتنة باسم الدين نفسه » .

ولقد نصح لهم هارون ﷺ وهو نبيهم كذلك ، والنائب عن نبيهم المنقذ ، ونبههم إلى أن هذا ابتلاء وفتنة لكم وربكم الرحمن ، ونصحهم باتباعه وطاعته كما تواعدوا مع موسى ، وهو عائد إليهم بعد ميعاده مع ربه على الجبل ، ولكنهم بدلا من الاستجابة له التووا وتملصوا من نصحه ومن نبيهم بطاعته ، فلن يتركوا عبادته حتى يسمعوا كلام موسى فيه ، ويرجع موسى فى ثورته إلى قومه ، والتفت إلى أخيه وهو فى فورة الغضب يأخذ بشعر رأسه وبلحيته فى انفعال وثورة يؤنبه على تركهم يعبدون العجل دون أن يبطل عبادته .

وقد قرر السياق ما كان من موقف هارون ، فهو يطلع أخاه عليه ويعرض له وجهة نظره فى صورة الطاعة لأمره حسب تقديره ، وأنه خشى إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعًا بعضها مع العجل وبعضها مع نصيحة هارون ، وقد أمره بأن يحافظ على بنى إسرائيل ولا يحدث فيهم أمرا ، فهى كذلك طاعة الأمر من ناحية أخرى ، وعندئذ يتجه موسى بغضبه وانفعاله إلى السامرى صاحب الفتنة من أساسها .

يقول صاحب الظلال : « إنما لم يتوجه إليه منذ البدء ؛ لأن القوم هم المسؤولون ألا يتبعوا كل ناعق ، وهارون هو المسؤول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هموا بذلك وهو قائدهم المؤتمن عليهم ، فأما السامرى فذنبه يجيء متأخرا لأنه لم يفتنهم بالقوة ، ولم يضرب على عقولهم ، إنما أغواهم فغووا ، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول ونصح نبيهم الثانى ، فالتبعة عليهم أولا وعلى راعيهم بعد ذلك ، ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيراً » .

اتجه موسى إلى السامرى ، وسأله عن شأنه وقصته ، وأجاب السامرى فقال : رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون فقبضت قبضة من أثر فرسه فألقيتها على عجل الذهب ، فكان له هذا الخوار أو إنها هى التى أحالت كوم الذهب عجلا له خوار ، والقرآن يحكى عن السامرى مجرد حكاية ، ونميل إلى اعتبار هذا عذرا من السامرى وتملصًا من تبعة ما حدث ، وأنه هو صنع العجل من الذهب الذى قذفه بنو إسرائيل من زينة المصريين التى أخذوها معهم ، وأنه صنعه بطريقة تجعل الريح تصوت فى فراغه فتحدث صوتا كالخوار .

وعلى أية حال فقد أعلنه موسى عليه السلام بالطرد من جماعة بنى إسرائيل مدة حياته ، ووكل أمره بعد ذلك إلى الله ، وواجهه بعنف فى أمر إلهه الذى صنعه بيده ؛ ليرى قومه بالدليل المادى أنه ليس إلها ، فهو لا يحمى صانعه ، ولا يدفع عن نفسه ، فكما أخذ ومس ما لم يكن أخذه ومسه من أثر الرسول فعقوبته فى الدنيا أن يذهب مطرودًا لا يمسه أحد لا بسوء ولا بخير، ولا تمس أحداً، وكانت هذه إحدى العقوبات فى ديانة موسى ، عقوبة العزل ، وإعلان دنس المدنس فلا يقربه أحد ولا يقرب أحدًا .

أما الموعد الآخر فهو موعد العقوبة والجزاء عند الله ، وفى حنق وعنف أمر أن يهوى على عجل الذهب ، فيحرق وينسف ويلقى فى الماء ، والعنف إحدى سمات موسى عليه السلام وهو هنا غضبة لله ولدين الله حيث يستحب العنف وتحسن الشدة .

وعلى مشهد الإله المزيف يحرق وينسف ،يعلن موسى عليه السلام حقيقة العقيدة، فليس هذا إلهكم ، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو فلا يستحق ذلك على العباد إلا هو ، ولا تنبغى العبادة إلا له ، فإن كل شىء فقير إليه ، عبد لربه الذى هو عالم بكل شىء .

يقول صاحب الظلال « وينتهى بهذا الإعلان هذا القدر من قصة موسى فى هذه السورة ، تتجلى فيه رحمة الله ورعايته بحملة دعوته وعباده ، حتى عندما يبتلون فيخطئون ، ولا يزيد السياق شيئا من مراحل القصة بعد هذا ؛ لأنه بعد ذلك يقع العذاب على بنى إسرائيل بما يرتكبون من آثام وفساد وطغيان ، وجو السورة هو جو الرحمة والرعاية بالمختارين ، فلا حاجة إلى عرض مشاهد أخرى من القصة فى هذا الجو الظليل » .

وتنتهى القصة فى السورة بالإشارة إلى العبرة والعظة ، فالقرآن ليس تاريخا يكتب بل منهجًا يهدى إلى صراط مستقيم ، فتكفى اللمحة الدالة ، واللفتة الهادية ، وما يضير بعد أن تلقى الروح فى الجسد ، وتعطى البصيرة للبصر ، والإحساس بعد الموات ، وهل التاريخ إلا ذخيرة أيام ذهبت لأيام تستقبل ، وهل ينتفع البدن بغير ما يفيد ؟ !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ معصية الرسول تؤدى إلى فتنة العاصى فى دينه ودنياه .

٢ ـ قد يخطئ المجتهد وله أجر اجتهاده ، وقد يصيب وله أجران .

٣ ـ مشروعية هجرة المبتدع ونفيه وطرده ، فلا يسمح لأحد بالاتصال به والقرب منه إذا كان فى ذلك فائدة .

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا
ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا
﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ
فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ
بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ
أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ
فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾
لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ
لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا
﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ
قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ
عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ
حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا
يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

الحزب ٣٢

معانى الكلمات :

وزرا : حملا ثقيلا .

أمثلهم : أعدلهم .

قاعا : أرضا ملساء لا نبات فيها ولا بناء .

صفصفا : أرضا مستوية .

عنت : ذلت .

الحى : الدائم الحياة .

القيوم : الدائم القيام بتدبير الخلق .

هضما : نقصا من ثوابه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن القرآن ذكر للذاكرين لما يحمل من الحجج والدلائل والبراهين .

٢ ـ أن نقف على حال المجرمين يوم القيامة الذين أعرضوا عن القرآن الكريم .

٣ ـ أن نعلم أن لا نجاة إلا للمتقين ، ويوم القيامة لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل .

المحتوى التربوى :

يعقب السياق بالحديث عن القرآن ، والقصص الذى أوحينا إليك بشأن موسى نقص عليك من أنباء ما قد سبق، نقصه عليك فى القرآن ذكرا فهو ذكر لله ولآياته ، وتذكير بما كان من هذه الآيات فى القرون الأولى .

ويرسم للمعرضين عن هذا الذكر ويسميهم المجرمين مشهداً فى يوم القيامة ، فهؤلاء المجرمون يحملون أثقالهم كما يحمل المسافر أحماله ، ويا لسوئها من أحمال ، فإذا نفخ فى البوق للتجمع فالمجرمون يحشرون زرق الوجوه من الكدر والغم ، يتخافتون بينهم بالحديث لا يرفعون به صوتا من الرعب والهول ، ومن الرهبة المخيمة على ساعة الحشر .

وفيم يتخافتون ؟ إنهم يحدسون عما قضوا على الأرض من أيام وقد تضاءلت الحياة الدنيا فى حسهم وقصرت أيامها فى مشاعرهم فليست فى حسهم سوى أيام قلائل ، فأما أرشدهم وأصوبهم رأيا فيحسونها أقصر وأقصر فليست إلا يوما ، وهكذا تنزوى تلك الأعمار التى عاشوها على الأرض وتنطوى ، ويتضاءل متاع الحياة وهموم الحياة ، ويبدو ذلك كله فترة وجيزة فى الزمان ، وشيئا ضئيلا فى القيمة ، فما قيمة عشر ليال ولو حفلت باللذائذ كلها وبالمتاع ؟ وما قيمة ليلة ولو كانت دقائقها ولحظاتها مليئة بالسعادة والمسرة ، ما قيمة هذه أو تلك إلى جانب الآماد التى لا نهاية لها ، والتى تنتظرهم بعد الحشر وتمتد بهم بلا انقطاع ؟ !

ويزيد مشهد الهول بروزا بالعودة إلى سؤال لهم يسألونه فى الدنيا عن الجبال ما يكون من شأنها يومذاك ، فإذا الجواب يصور درجة الهول الذى يواجهونه ، ويتجلى المشهد الرهيب ؛ فإذا الجبال الراسية الراسخة قد نسفت نسفا ، وإذا هى قاع بعد ارتفاع ، قاع صفصف خال من كل نتوء ومن كل اعوجاج ، فلقد سويت الأرض فلا علو فيها ولا انخفاض .

وكأنما تسكن العاصفة بعد ذلك النسف والتسوية ، وتنصت الجموع المحتشدة المحشورة ، وتخفت كل حركة وكل نأمة ، ويستمعون الداعى إلى الموقف فيتبعون توجيهه كالقطيع صامتين مستسلمين لا يلتفتون ولا يتخلفون ، وقد كانوا يدعون إلى الهدى فيتخلفون ويعرضون ، ويعبر عن استسلامهم بأنهم يتبعون داعيهم ، حيثما أمروا بادروا إليه ؛ ولو كان هذا فى الدنيا لكان أنفع لهم ولكن حيث لا ينفعهم ، وقال محمد بن كعب القرظى : يحشر الله الناس يوم القيامة فى ظلمة ويطوى السماء ، وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادى مناد فيتبع الناس الصوت فيؤمونه لا يميلون عنه .

ثم يخيم الصمت الرهيب والسكوت الغامر والجلال على الموقف كله ، وتغمر الساحة التى لا يحدها البصر رهبة وصمت وخشوع فالكلام همس والسؤال تخافت والخشوع ضاف ، والوجوه عانية ، قد خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى لا يموت ، القيوم الذى لا ينام وهو قيم على كل شىء ، يدبره ويحفظه ، فهو الكامل فى نفسه الذى كل شىء فقير إليه لا قوام له إلا به ، وجلال الحى القيوم يغمر النفوس بالجلال الرزين ، ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله قوله .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم ، وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال : « آتى العرض وأخر لله ساجداً ، ويَفْتَح علىّ بمحامد لا أحصيها الآن ، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ثم يقول : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يُسمع ، واشفع تشفع » قال : « فيحدّ لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود » فذكر أربع مرات ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

والعلم كله لله فهو يحيط علما بالخلائق كلهم ، وهم لا يحيطون به علما ، والظالمون يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة ، فإن الله سيؤدى كل حق إلى صاحبه حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء ، وفى الصحيح : « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » ، والخيبة كل الخيبة لمن لقى الله وهو مشرك به .

لما ذكر الظالمين ووعيدهم ، ثنى بالمتقين وحكمهم ، وهم أنهم لا يُظلمون ولا يهضمون ، فلا يزداد فى سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ، وهم مطمئنون لا يخشون ظلما فى الحساب ولا هضما لما عملوا من صالحات ، إنه الجلال ، يغمر الجو كله ويغشاه فى حضرة الرحمن .

وهكذا يطرح السؤال ويكون الجواب خاطفا للفكر والشعور منتزعًا للقلب والإحساس ، فأى هول أعظم من هذا الهول الذى يزيل كل عظيم ظنناه ، ويرقب الكافر نفسه ، صامته مستسلمة لا تلتفت إلى شىء ولا ترعوى على شىء ، شاةً فى قطيع لا يتخلف عن أمر راعيه ، لا شفاعة ولا ندامة بل حساب عسير وعذاب مرير ، وخيبة لا صلاح بعدها ، كل هذا والمؤمن قرير العين ساكن الفؤاد مستجمع النفس له شفاعة ولا يخاف ظلما ولا هضما .

ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعا لا محالة ، أنزلنا القرآن بشيرا ونذيرا بلسان عربى مبين فصيح لا لبس فيه ولا عى ، ونوعنا فى القرآن من صور الوعيد ومواقفه ومشاهده لعله يستجيش فى نفوس المكذبين شعور التقوى فيتركون المآثم والمحارم والفواحش ، أو يذكرهم بما سيلقون فى الآخرة فينزجروا ويوجد لديهم الطاعة وفعل القربات .

وهكذا يخيم الجلال على السياق كله فينتفض القلب خاشعا متبتلا ، ويهب من سكونه المخزى ، وركونه المزرى ، وإيمانه المدعى على أنباء قد قصت ، وعلى إعراض يعقبه حمل أوزار ، ويوم يكون فيه الحشر للمجرمين صغاراً محتقرين لا يرفعون أنفا كما كانوا فى الدنيا ، ولا تأخذهم عزة قد سيطرت عليهم فى باطلهم فأضلتهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أيام الحياة مهما طالت فهى قصيرة إلى جانب الآخرة ، والفالح من أخذها زادا ليوم القيامة .

٢ ـ لا ينجو إلا المتقون يوم القيامة .

٣ ـ بيان خيبة المشركين وفوز الموحدين يوم القيامة .

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ
إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ
﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا
مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾
وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ
ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ
لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾
ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا
جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى
فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن
ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٰٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾
٣٢٠

معانى الكلمات :

يقضى : يفرغ .

أبى : امتنع .

تضحى : تبرز للشمس .

يبلى : يزول .

طفقا : شرعا .

يخصف : يلصق ويلزق .

فغوى : فضل .

ضنكا : ضيقة شديدة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الحكمة من إنزال القرآن باللسان العربى وتصريف الوعيد فيه .

٢ ـ أن نقف على عداوة الشيطان لآدم وذريته .

٣ ـ أن نعلم سوء حال المعرضين عن هداية الله .

المحتوى التربوى :

لقد كان الرسول ﷺ يلاحق الوحى فيردد ألفاظ القرآن وآياته قبل أن ينتهى الوحى مخافة أن ينسى ، وكان ذلك يشق عليه فأراد ربه أن يطمئن قلبه على الأمانة التى يحملها ، فتعالى الله الملك الحق الذى تعنو له الوجوه ، ويخيب فى حضرته الظالمون ويأمن فى ظله المؤمنون الصالحون ، هو منزل هذا القرآن من علياته ، فلا يعجل به لسانك فقد نزل القرآن لحكمة ولن يضيعه ، إنما عليك أن تدعو ربك ليزيدك من العلم وأنت مطمئن إلى ما يعطيك لا تخشى عليه الذهاب ، وما العلم إلا ما يعلمه الله فهو الباقى الذى ينفع ولا يضيع ويثمر ولا يخيب .

ثم تجيء قصة آدم بعد عجلة الرسول بالقرآن خوف النسيان ، فيذكر فى قصة آدم نقطة النسيان ، وتجيء فى السورة التى تكشف عن رحمة الله ورعايته لمن يجتبيهم من عباده ، فيذكر فى قصة آدم أن ربه اجتباه فتاب عليه وهداه ، ثم يعقبها مشهد القيامة يصور عاقبة الطائعين من أبنائه وعاقبة العصاة ، وكأنها هى العودة من رحلة الأرض إلى المقر الأول ليجزى كل بما قدمت يداه .

فلنتبع القصة كما جاءت فى السياق ، عهد الله إلى آدم كان هو الأكل من كل الثمار سوى شجرة واحدة ، تمثل المحظور الذى لابد منه لتربية الإرادة وتأكيد الشخصية ، والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذى يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد ، فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها ، وهذا هو المقياس الذى لا يخطئ فى قياس الرقى البشرى ، فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها والاستعلاء عليها كانت أعلى فى سلم الرقى البشرى .

وها هى ذى التجربة الأولى تعلن نتيجتها الأولى ، فقد نسى آدم ﷺ ما عهد إليه ربه ، وأمر الملائكة بالسجود فسجدوا إلا إبليس ، وتأتى رعاية الله وعنايته فينبه آدم إلى عدوه ويحذره غدره عقب نشوزه وعصيانه ، والامتناع عن السجود لآدم كما أمره ربه ، فالشقاء بالكد والعمل والشرود والضلال والقلق والحيرة واللهفة والانتظار والألم والفقدان كلها تنتظر هناك خارج الجنة ، وأنت فى حمى منها كلها ما دمت فى رحاب الفردوس ، فعدم الجوع والعرى والظمأ والحر هذا كله مضمون لك ما دمت فى رحابها .

ولكن آدم كان غفلا من التجارب ، وهو يحمل الضعف البشرى تجاه الرغبة فى البقاء ، والرغبة فى السلطان ، ومن هذه الثغرة نفذ إليه الشيطان ولم يزل به وزوجته حتى أكلا من شجرة الخلد والملك المزعومين ، فبدت السوءات والظاهر أنها السوءات الحسية تبدت لهما وكانت عنهما مستورة وأخذا يلصقان من ورق الجنة عليهما ، وعصى آدم بارتكاب المنهى عنه وغوى بترك المأمور به .

ثم أدركت آدم وزوجه رحمة الله بعدما عصاه ، فقد كانت هذه التجربة الأولى ، فاصطفاه ربه بعد ما استغفر آدم وندم واعتذر ، ولا يذكر هذا هنا لتبدو رحمة الله فى الجو وحدها ، ثم صدر الأمر إلى الخصمين اللدودين أن يهبطا إلى أرض المعركة الطويلة بعد الجولة الأولى ، وأعلنت الخصومة فى الثقلين ، فلم يعد هناك عذر لآدم وبنيه من بعده أن يقول أحد منهم : إنما أخذت على غرة ومن حيث لا أدرى ، فقد درى وعلم .

ومع هذا الإعلان الذى دوت به السموات والأرضون وشهده الملائكة أجمعون ، شاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسله بالهدى قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم ، فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرى بين آدم وإبليس، أنه آتيهم بهدى منه ، فمجازٍ كلا منهم بعد ذلك حسبما ضل أو اهتدى .

فمن اتبع الهدى فهو فى أمان من الضلال والشقاء فى الدنيا والآخرة ، ومن خالف أمر ربه وانقطع عن الاتصال به فله معيشة بائسة فى الدنيا فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق حرج لضلاله وإن تنعم ظاهره ، ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى ، فهو فى قلق وشك وحيرة فلا يزال فى ريبة يتردد .

يقول صاحب الظلال : « ما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا فى رحاب الله ، وما يحس راحة الثقة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولا وعرضا وعمقا وسعة ، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان ، لقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه ، فلا جرم يعيش معيشة ضنكا ويحشر فى يوم القيامة أعمى .

وهكذا يوضح السياق مفهوم السعادة والشقاء ، ويصحح المفاهيم الخاطئة فى هذا الأمر ، فالشقاء الحقيقى شقاء الآخرة ، والشقاء الحقيقى فى ترك الهدى مهما ظن ظان أن السعادة فى غير ذلك .

يقول صاحب الأساس : « إنه عندما يترك الخلق دين الله يصبح بعضهم لبعض عدواً ، ويصبح الإنسان لنفسه عدوا ؛ إذ يتناقض مع فطرته ، وفى ذلك الشقاء الحقيقى ، إن دين الله هو الذى يجعل الإنسان صديقا مع نفسه ، وهو الذى يوجد صيغة للتعايش المريح بين الخلق ، ومن ثم نلاحظ أن التشريعات الإسلامية منصبة على إبعاد المؤمنين عن كل خلاف يهدف إلى قطع الخصومات والمنازعات بين الناس ، وعلى الإنسان أن يتعظ ويعمل من أجل الخلاص من هذا الشقاء باتباع وحى الله » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الترغيب فى طلب العلم وإشعار النفس بالجهل والحاجة إلى هذا العلم .

٢ ـ الجنة لا نصب فيها ولا تعب إنما ذلك فى الأرض ، والعاقل من يتعب لراحته الأبدية .

٣ ـ الشقاوة والمعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكر ربه .

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ
وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ
مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ
وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا
تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ
﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى
ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ
لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن
قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

معانى الكلمات :

أسرف : جاوز الحد .

لزاما : لازما .

تمدن : تطل .

اصطبر : داوم .

نخزى : نفضح .

متربص : منتظر مصيره .

الصراط السوى : الطريق المستقيم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة .

٢ ـ أن نتعلم الصبر على دعوة الله عز وجل .

٣ ـ أن نتعلم الرضا بما قسمه الله وعدم التطلع إلى ما عند الآخرين .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق بعد ذكر ضلال الضال ومعيشته الضنك فى الدنيا ، فذكرت أن هذا المعرض سيحشر أعمى يوم القيامة ، وذلك ضلال من نوع ضلاله فى الدنيا ، وذلك جزاء على إعراضه عن الذكر فى الأولى حتى إذا سأل لم هذا العمى فى يوم الحشر ؟ كان الجواب لقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه ، أسرف فألقى بالهدى من بين يديه وهو أنفس ثراء وذخر ، وأسرف فى إنفاق بصره فى غير ما خلق له فلم يبصر من آيات الله شيئا ، فلا جرم أن يعيش معيشة ضنكا ، ويحشر يوم القيامة أعمى .

و يأخذ السياق جولة حول مصارع الغابرين ، وهى أقرب فى الزمان من القيامة ، وهى واقع تشهده العيون إن كانت القيامة غيبا لا تراه الأبصار ، وحين تجول العين والقلب فى مصارع القرون ، وحين تطالع العين آثارهم ومساكنهم عن كثب ، وعندئذ يدرك يد القدرة التى أخذت القرون الأولى وهى قادرة على أن تأخذ ما يليها ، وعندئذ يعى معنى الإنذار ، والعبرة أمامه معروضة للأنظار ، فما لهؤلاء القوم لا يهتدون وفى مصارع القرون ما يهدى أولى الألباب ، ولولا أن الله وعدهم ألا يستأصلهم بعذاب الدنيا لحكمة عليا ، لحل بهم ما حل بالقرون الأولى ، ولكنها كلمة سبقت من ربك وأجل قد قدر .

وإذا كانوا مؤخرين إلى أجل ، ممهلين لا مهملين ، فلا عليك يا محمد منهم ولا مما أوتوه من زينة الحياة الدنيا ليكون ابتلاء لهم ، فإنما هى الفتنة وما أعطاكه الله إنعاما فهو خير مما أعطاهم ابتلاء ، فاصبر على ما يقولون من كفر واستهزاء وجحود وإعراض ، ولا يضق صدرك بهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، واتجه إلى ربك سبح بحمده قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، فى هدأة الصبح وهو يتنفس ويتفتح بالحياة ، وفى هدأة الغروب والشمس تودع ، والكون يغمض أجفانه ، وسبح بحمده فترات من الليل والنهار ، كن موصولا بالله على مدار اليوم .

يقول صاحب الظلال : « إن التسبيح بالله اتصال ، والنفس التى تتصل تطمئن وترضى ، ترضى وهى فى ذلك الجوار الرضى ، وتطمئن وهى فى ذلك الحمى الآمن ، فالرضا ثمرة التسبيح والعبادة ، وهو وحده جزاء حاضر ينبت من داخل النفس ويترعرع فى حنايا القلب » .

اتجه إلى ربك ولا تنظر إلى هؤلاء المترفين وأشباههم ونظرائهم ، وما هم فيه من النعم ، فإنما هو زهرة ، والزهرة سريعة الذبول على ما بها من رواء وزواق ، فإنما نمتعهم بها ابتلاء ، فنكشف عن معادنهم بسلوكهم مع هذه النعمة وذلك المتاع ، وهو متاع زائل كالزهرة سرعان ما تذبل ، ورزق ربك خير فهو رزق للنعمة لا للفتنة ، رزق طيب خير باق لا يذبل ولا يخدع ولا يفتن .

يقول صاحب الظلال : « وما هى دعوة للزهد فى طيبات الحياة الدنيا ، ولكنها دعوة إلى الاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية ، وبالصلة بالله والرضا به ، فلا تتهاوى النفوس أمام زينة الثراء ، ولا تفقد اعتزازها بالقيم العليا ، وتبقى دائما تحس حرية الاستعلاء على الزخارف الباطلة التى تبهر الأنظار » .

وأول واجبات الرجل المسلم أن يحول بيته إلى بيت مسلم ، وأن يوجه أهله إلى أداء الفريضة التى تصلهم معه بالله ، فتوحد اتجاههم العلوى فى الحياة ، وما أروع الحياة فى ظلال بيت أهله كلهم يتجهون إلى الله ، واصطبر على إقامتها كاملة ، وعلى تحقيق آثارها ، إن الصلاة تنهى عن

الفحشاء والمنكر ، وهذه هى آثارها الصحيحة ، وهى فى حاجة إلى اصطبار على البلوغ بالصلاة إلى الحد الذى تثمر فيه ثمارها ، هذه فى المشاعر والسلوك ، وإلا فما هى صلاة مقامة إنما هى حركات وكلمات ، وإذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب فلا تكلفك الطلب ، إنما هى العبادة تستجيش وجدان التقوى ، فالإنسان هو الرباح فى دنياه وأخراه ، يعبد فيرضى ويطمئن فيستريح ، ويعبد فيجزى الجزاء الأوفى والله غنى عن العالمين .

ويعود السياق بالحديث قرب ختام السورة إلى أولئك الكبراء المتعين المكذبين ، الذين يطلبون إلى الرسول ﷺ بعد ما جاءهم بهذا القرآن أن يأتيهم بآية من ربه ، وهذا القرآن يبين ويوضح ما جاءت به الرسالات قبله ، فليس إلا التعنت وإلا المكابرة ، وإلا فآية القرآن كافية ، وهو يصل حاضر الرسالة بماضيها ، ويوحد طبيعتها واتجاهها ، ويبين ويفصل ما أجمل فى الصحف الأولى .

ولقد أعذر الله للمكذبين فأرسل إليهم خاتم المرسلين ﷺ ، وهم لم يذلوا ولم يخزوا لحظة أن كان هذا النص يتلى عليهم ، إنما هو تصوير لمصيرهم المحتوم الذى يذلون فيه ويخزون فلّعلهم حينذاك قائلون : ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه ؟ وعندما يصل السياق إلى تصوير المصير المحتوم الذى ينتظرهم يؤمر الرسول ﷺ أن ينفض يده منهم فلا يشقى بهم ، ولا يكربه عدم إيمانهم ، وأن يعلن إليهم أنه متربص بهم ذلك المصير، فليتربصوا هم كيف يشاؤون .

وبذلك تختم السورة التى بدأت بنفى إرادة الشقاء عن النبى ﷺ من تنزيل القرآن ، وحددت وظيفة القرآن فهو تذكرة لمن يخشى ، والختام يتناسق مع المطلع كل التناسق ، فهو التذكرة الأخيرة لمن تنفعه التذكرة ، وليس بعد البلاغ إلا انتظار العاقبة ، والعاقبة بيد الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ وجوب الصبر على تبليغ دعوة الله ، وسلوك أحسن المسالك إليها .

٢ ـ الرضا بما قسمه الله من رزق انتظارًا لرزق الآخرة الآخرة الخالد الباقى .

٣ ـ الذلة والخزى تصيب أهل النار يوم القيامة لما فرطوا فيه من الإيمان والعمل الصالح .